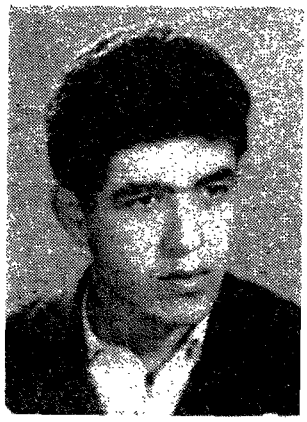

المأساة في «في شمسي دوار»

بقلم رشاد أبو شاور

المأساة ... مأساة جيلنا المعاصر الذي ما فتىء يندب حظه العاثر متخبطا في كل التيارات المتضاربة باحثا عن المنطلق نقطة البدء لما يؤمل ان يحقق من صبوات ورغبات مضطرمة من اهداف ومثل عليا تؤمن الخير والحب للناس جميعا من ابناء ارضنا المعطاء ، مأساة هذا الجيل انه جاء الحياة ليفتح عيونه على وطن مسلوب وخيرات منهوبة وقدرات ضائعة مبعثرة تسفحها كل قوى التأخر والانجرار الى الخلف . هذا الجيل قد تمرد واخذ يرفع صوته عاليا يرفض الزيف ، يريد ان يصل الى الحقيقة بصدق وبدروب شريفة دون مهادنة ، الجيل المتمرد الخلاق هـذا قـد انجب الشاعر : فواز عيد .

المأساة والهزيمة الكبرى التي تلوث وجدان هؤلاء الفرسان الذين نما في صدورهم الالم فكان تمردا شق دربه امامهم ساطعا في حلكة ظلمة العصور وبقاياها العفنة ، هذا التمرد على الزيف ، على الذل المتوارث الذي عشش في زوايا العيون والذي طالما دوخ الرؤوس واستفحـل خطره ، ينفض الان عن كواهل الجيل بكل عظمة واندفاع العربي الثائر الصادق . ابناء هذا الجيل فرسان كبروا على حمحمة الخيل وصهيل الجياد في معركة النداء للتخلص من العار ... هؤلاء الفرسان هـم الذيـن :

« قـالوا
نعود .... ولا نعود
كانوا صغارا
يكبرون على صهيل جيادهم في الليل
كانوا يكبرون »

لقد ندب الشاعر فواز هذا الجيل للواقع بكل ما فيه من تزمت ، والقارىء للديوان لا بد وان يلاحظ نمو خيط المأساة في وجدان الشاعر منذ فاتحة الديوان « الابواب » حتى القصيدة الاخيرة « لا نعش للغرباء » خيط المأساة هذا هو الذي يجعل من الديوان بكل قصائده قصيـدة واحدة . انه في محاولته الاولى للهرب انما يزداد اقترابا والتصاقا بالواقع بالرغم من ضباب الاقبية وبالرغم من محاولة الانطواء .

« الابواب » مفتاح الديوان وهي بحق من اجود واروع قصـائد الشعر الحديث من حيث قوة الشاعر الايحائية والبنائية والقدرة علـى اعطاء وخلق الصورة المتينة « والحديثة » بكل ما فيها من جهد خلاق ، الشاعر في « الابواب » التي هي ثلاثة اناشيد ذات بناء سيمفوني لا يمكن للقارىء ان يرتبط معها وان يفهمها الا بان يقرأ كل نشيد بنفس واحد متتابع ومن ثم يربط في ذهنه الاناشيد الثلاثة ، فالشاعر يهـرب بنفسه بعيدا عن عالم الواقع ويحاول ان يطرد عن بابه ذلك العاشق الذي يمثل في ذهنه تجربة الحب معجونة بالفشل والاحزان ...

... وهنا بجانب موقدي كم قال ...
حدثني .. عن المدن الحزينه ...
عن غريق مات في الجزر البعيدة ..
عن حبيبته ..
روى في الليل
حدق في الرماد
وفـام ...
اسلم نفسه للريح ...
سال مع الظلام ...
مضـى ...
ترى لو عاد ..
لا تقرع ..
دروب التل تلهث عند ابوابي
وابوابي مغلقة من العصر القديمة لم تزل .

وفي النشيد الثاني يرجع الينا صدى النشيد الاول فيهمـس باسلوب خفي ان الشاعر هو ذلك العاشق لكنـه حنط ذكرياته تمثالا ، ومع ذلك فلا بأس من ان يضع اطفاله اماني غده على يدي التمثال ... هؤلاء الاطفال انما هم براءة الاحلام التي ولدت في قلب الشاعر والتي هي عبارة عن الحنين للبحث عما يسند اليه رأسه المتعب . واروع مـا في النشيد الثاني تلك « الحكاية » قصة البحار التي كانت السنة اهل المدينة تلهج بذكرها ، ذلك الملاح الحزين كان يغيب اياما ليعود فيظهـر من جديد حاملا معه الى المدينة الحناء والطيب وبعض الحزن الغامض ، غاب هذا الملاح ولكن لا ليعود بل ليختفي عن المدينة دون امل بعودة اخرى بعد ان غاب مركبه وتوارى في البحر .

« ويقال : ان ستارة زرقاء عابثها النسيم
هنـاك
فانحسرت
وظل القارب المسحور ينثر خلفها الحناء
ينثـر
ثم غاب ولم يعد . »

لقد توارى ، غيبه البحر كما غيب كثيرا من الرجال قبله ... غاب الملاح ... رحل الشاعر ، ابتنى لنفسه معبدا بعيدا عن الناس ، هرب من الفشل الى الحزن والبخور والمواقد والريح والعراء . ويتجلـى الهرب في النشيد الثالث الذي يسميه الشاعر « المطر » او بعبارة اخرى ما يغسل الحزن ، في هذا النشيد خاتمة القصة وبداية المأساة . فمنذ البداية كان الشاعر « بطلا » يعترف بفشله وينعزل ليبحث عـن تجربة جديدة ، انه يريد الانعزال ليراقب ثم لينحدر الى مجرى الحياة ويتعذب مرة اخرى ، أن وحدته وانعزاله هنا الى درجة التصوف ليست انعزالا نهائيا .

« من يقرع القصدير !؟
ابوابي مغلقة من العصر القديمة
لم تزل
من يقرع القصدير !؟
جدراني مغبرة
وكهاني على وهج المواقد نائمون . »

الرعب في قلب الرجل والمرأة ابتنى لنفسه عشا توارثه الابنـاء عن الاباء وابناء هذا الجيل بلا حب بلا حنان ، الحب اتصال للحظات في زوايا هروبية وتحت وطأة الخوف من العقاب ، الخوف يدفع هؤلاء

الشباب للهرب ، للتسكع في الحانات ، في المقاهي ، في الاقبية ،يبحث الشاعر عن الحب ، يفتش الجيل عن الاستقرار ، ولكنهما مفقودانوهذا هو قدر الجيل .

اين هي شهرزاد ، ومن تكون ؟ ما لون عينيها ؟ انها ليست الا في يوتوبيا حلما يخفق مثل ضوء صغير ويبتعد وينأى وان وجدت فهي مأساة متجددة . لذا يلوذ الشاعر بنفسه في زاوية من زوايا الكهف حيث صراخ البوق ، يلتفت حوله فلا يرى الا رؤوسا دائخة وعيونا جامدة :

« ويرش الكهف في الاهداب الوانا سخينة
توثق الاقدام بالبوق فلا تدري

متى كانت رزينة »

ليال صقيعية ليالي ابناء هذا الجيل ، الدخان ضباب الحزن الشفاف ، الليلة تتبع الاخرى عمرنا يفنى لا جديد غير مآس صغيرة مبعثرة تتفتح مع اشراقة كل صبح ، لا بأس من ان تضيع هذه الليلة ايضا ، لقد جئنا هنا للنسيان لاننا بلا شهرزاد بلا قرار ، شهرزاد احدى مشاكلنا وهي مشكلة كبيرة لانها الطريق للاستقصاء والبحث لانها العون في الطريق الوعر . نمد ايدينا فنقبض على وهم يراوغ على سراب مخادع ، على لا شيء ، العيون تحملق مشدوهة ، الانغام تحلم ، ولكن لقد فقدنا القدرة على الحلم .. لقد انتهينا .. انتهينا :

« تعبت اقدامنا

في الكهف ريح باردة
وارتمت منهارة في الليل عين جامده . »

ها هي ذي شهرزاد يحاول الشاعر الاقتراب منها ليهمس لها قائلا:

« شهرزاد
انت يا شمعية ياصمتغابه
من ترى اضناك !؟
اعطاك الكآبه
كلما قلت « غدا »
اجبن
والجبن صبابه . »

شهرزاد ايضا مثله صفراء كئيبة كزهرة بلا شذى ، لا تستطيع ان تهبه شيئا ، انها لا تملك ما تعطي فمأساتهما واحدة .

هل ينسى الشاعر الخنجر المنتظر بصلف خنجر مجتمع شرقي مغلق لا يأخذ ولا يعطي ، لكن ها نحن هنا نتعرف على المشكلة اكثر وعلى جذورها البعيدة ، ففي القصيدة الثالثة « القصب والمرايا »

« تروي العجائز انها احبته وهربت معه حيث ذبحت كالشاةوكان صوتها يتأوه تحت رذاذ القمر »

لماذا اختار الشاعر هذه الاسطورة الريفية ؟ ولماذا وضع روحالهاربة مع عاشقها والتي قتلت لانها تحب ؟ صورة امام عيوننا تلك التي تكاد دماؤها تنبجس من احرف القصيدة على الورق ، هذا هوذا العاشق لم يقتل لانه رجل لكنه هرب وما عاد يغني ، لقد سرق منه اللحن ، توارى ولم يرجع ، خلف وراءه « مذبوحة » عصرت دماؤها في احمرار شقائق النعمان ، مضى مع الليل دون ان يراه احد بعد ان انقطع اخر خيط يشده الى الحياة وما زال النهر يبكي والعجائز يروين بكل بساطة وكأنها حلم مر .

« قيل في الضفة ما عاد يغني
قيل قد يرجع يوما
قيل مجنون مضى في الليل
مات
قيل ما قيل
وقد القصب المنعب يلوي
وتجوس الريح افواس السكينه
وتروي من جرار الليل قامات القصب
ويدق النهر في الشطآن اجراسا حزينة . »

« الطريق الى المقبرة » هي القصيدة الضحية فبالرغم مما فيها من جمال الا انها قد قتلت بتأثر الشاعر بالموجة الجديدة . لقد اجاد الشاعر في اعطاء صورة للمدينة حيث لا صلة تربط ولا بساطة تجمعبل سيارات وفولاذ يندفع بهمجية ولكن كما قلت ان موجة « اليوت » اثرت في الكثيرين ومن بينهم شاعرنا هذا في قصيدته هذه .

اننا لم نصل بعد الى التعقيدات الحضارية كاوربا بل اننا ما زلنا في بدايه الطريق ، فلماذا هذا الرعب وهذا التصوير لشيء غير موجود ؟ اين هي المعامل في بلادنا ؟ اننا ما زلنا في بداية الشوط ولم نقطع شيئا بعد ، ودمشق هي مثل الريف بالرغم من هذا « البهرج » بالرغم من السيارات والترام والسرعة في السير وعدم الالتفات .

« يتلمظ الفولاذ طعمدمائنا شبقا
وتزفر من قتار جسومنا

سحب الدخان

ان موجة التأثر او « الاستيراد » التي لا اصالة فيها قدطغتعلى معظم نتاجنا الحديث ولم يسلم منها حتى شاعرنا بالرغم من كونها طفيفة عنده ، ومع ذلك ارجو ان تمحو اصالة العربي في شاعرنا هذا التأثر ، فحياتنا ما زالت بكرا . المدينة ، الضياع ، التسكع ، اقدام المتعبين الهاربين تدق وجه الشارع ودنما هدف ولكن اخيرا وبعد هذا التطواف الممل تحدر الرغبة شاعرنا فيحاول العودة الى شهرزاد علها تشعلجذوة حياته الخامدة ولكن شهرزاد ما زالت هي هي محاصرة خطفت الجدران لونها بالرغم من حروف الشاعر الملتهبة وبالرغم من طهر مداده المصبوغ بدمه ، لنعد ولنرتم في الزمن في صراخ البوق في ليل الاقبية لانالهزيمة ما زالت باقية موطدة الاركان ، فوداعا ايها الاصدقاء ، ايها المهزومون :

« عم مساء يا صديقي
وافترقنا في الطريق
وتلفتنا
اذا : لا بأس ... امضي
خلفي السود
وقدامي تعاريج المضيق . »

ويصل الشاعر الى :

« اصدقائي
ذبل البوق ومات اللحن
مات
وتمطت في الزوايا منليالينا الرفات . »

هذه الصورة الصادقة عن ابناء الجيل هي ما يحلو لبعضهمانيتهم الجيل بها « انهم لا شيء ، انهم السلبيون الهروبيون » ولكن ها هوذا الشاعر يرد عليهم بكل عظمة الجيل .

« يا صديقي
من هنا نبدأ في الغربةمن حيث انتهينا . »

الى « من مراسي اغنيات لم يذعها الوتر . »

ابناء هذا الجيل كالاطفال في الحاحهم يريدون جوابا عن كلشيء، اطفال في طيبتهم وصفاء قلوبهم وفرسان في بطولتهم في قوة اختراق حواجز الواقع الى هناك ، الى الامل الكبير الموعود ، انهماختاروا مصيرهم، حملوا العبء على اكتافهم ليحرروا انساننا العربي من كل القيود ومن

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

المأساة فـــي شمس دوار

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

كل ما في الماضي من صقيع ومرارة ، ان امتنا على موعد مع النصر ، على موعد مع الفارس الذي مضى ليعود يحمل معـــه اشراقـه الفجـــر وحرارة المستقبل .

« يا فارسي
يا بوح اغنية على شفة حزينة
يا موعدا ارجوه من سنة ضنينة . »

الشعر ما عاد تصفيقا وصراخا للحظة ثم ينتهي مفعوله ، ان الشعر الحديث لا يحتاج للتصفيق والهتاف بل هو غناء لارض الانسان لوطنه ، انه اغناء لحياتنا لكن دون سبجح وتطبيل .

الشاعر الان بدأ يعي رسالته اكثر من ذي قبل والاتصال وثيق بالرغم من محاولة المتخلفين ابعاد الشاعر الحديث واتهامه . اذا الشاعر الان لا يقف على منبر الخطابه من أجل نفخ المستمع للحظة بل اصبح ثمـة اختلاف ، فالشاعر الحديث في وسط المعركة ومع الشعب رفيـــق الجماهير الصامت والمتوقد في آن واحد ، انه الصدق والحـــرارة والخلق . لقد غنى فواز لبردى ولم يغن لشخص معين او لجماعة. غنى للجماهير والعرب جميعا وكان في كل حرف من حروفه بوحا عـــن شوق بعيد الفور ، بوحا عن صمت تفجر .

« وان قلنا
متى تهوي الثلوج ؟
متى يفيض النهر
قلت : غدا . »

الوعد في حبات ماء النهر ، في طيبة ارضنا المعطاء ، الشاعر مع بردى في الحاضر ومع الاندلس مع ماضي اجدادنا المجيد ، يتسكـــع الشاعر في شوارع دمشق ولكن العربي يثور فيـــه ، ينتفض بجبروت لتفيق معه الجماهير على الوجه النير للماضي بما فيه من طاقات واندفاع.

« رجعي
في الصدر انفاس
وفي الليل بقيه
فعزائي في ليالي مطر الغربة انت
ما انتهى الخصب بعينيك
ولا انت انتهيت . »

سؤال يطرح من خلال ابيات القصيدة ، ترى هل نضب الانســان العربي ؟ ام ان هناك املا لانهاء تسكعه الذهني وتشرده الروحي ؟ سؤال يعجز الشاعر له جوابا رائعا ، ان ذلك الانسان الذي خرج من الصحراء فانهى عهد الفوضى في الفكر الانساني في عصره لم ينته ، بل انه ما زال املا جديدا مرة ثانية ، انه يفيق في ليل الغربة ، في ليل التشرد والعزاء ، العودة للاخذ من الماضي الى ما يربط حاضره بماضيه دون مغالاة وتحجر ... فمنذ ان جاءنا البرص من روما ... الغزاة ونحـــن نزداد تشردا وغربة في وطننا .

« وداهمنا الغزاة البرص من روما
وعاثت اوجه الاغراب في الساحات
فما ابقت . كالحمى

لقد داهمنا الغزاة ، سرقوا فلسطيننا ... فمتى تعود ارضناحرة من جديد ، عندها لا نعود نحس بالغربة ... عندما يصبح هناك للغرباء نقش ... عندما يتسمخ العربي برأسه عاليا فيحمل من جديد الرسالة للانسان والحب والخير .

دمشق — رشاد ابو شاور

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعـة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتـــر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانـــا

تاليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تاليف مرغريت دورا
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تاليف لويجـي بيراندلـلو
ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبـــة

تاليف جان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت